مثل هذه ونشعر بضعف قوى نفوسنا ونرى قليلاً من علو شأن ذاك الذي يقول كن فيكون ومن لا يخشاه ويتضع قدامه ويتعجب من انه كان محتوياً ربوات من العوالم ومدبرها يتنازل إلى أن يحصى شعور رؤوسنا ويعطي طيور السماء ووحوش القفر طعامها في حينه ويزيّن عشب الحقل الذي اليوم يُرَى وغداً يطرح في التنور. ومن لا يرغب في معرفة هذه الأشياء أكثر فأكثر ليرى أكثر فأكثر من أعمال الرب العجيبة ويزيد سبحاً وتمجيداً لاسمه العزيز ومن لا يشفق بعد ذوق هذه الأطعمة على ذي العقل الضيق الأكرب الذي يظن ان هذه الدنيا الحقيرة هي أعظم الكائنات وان الجميع خُلِق لأجلها فقط. فإنه تعالى لا يعلمنا كذلك في كتابه الموضح لأعماله القائل: السماوات تذيع بمجد الرب والفلك يخبر بأعمال يديه، ليس قول ولا لغات لكن يسمع صوتهم. أنت يا رب وحدك خلقت السماء وسماء السماوات بأجنادها، وأنت حافظها جميعاً وإياك تسبّح، الرب في السماء هيَّأ كرسيَّه ومملكته على الكل تسود، سبّحيه أيتها الشمس والقمر، سبّحيه يا جميع الكواكب والنور، سبّحيه يا سماء السماوات، سبّحوه في فلك قوّته، سبّحوه على مقدرته، سبّحوه نظير كثرة عظمته كلُّ نسمة فلتسبّح الرب. انتهى ملخصاً من أمالي فلكية للحكيم [كرنيليوس] فنديك.

المؤلف

[بطرس البستاني

طبع في بيروت سنة ١٨٥٢ مسيحية

خطبة في آداب العرب

للمعلم بطرس البستاني

عُفي عنه

(١٥ شباط سنة ١٨٥٩)

أيها السادة

الموضوع آداب العرب وإن شئتم فقولوا: علوم العرب أو فنون العرب أو معارف العرب. ولكن قبل الشروع في الكلام على هذا الموضوع الذي ينبغي أن يكون لذيذاً ومفيداً لكل من له رغبة في الوقوف مدققاً على حقائق الأمور، يلزمنا أن نذكر بعض قضايا نظير مقدمات له وذلك على وجه الاختصار. فنقول:

أولاً: إن العلوم من شأنها النمو بالتدريج كالحيوان والنبات. ومع أن هذا النمو قد يكون جزئياً في عقل واحد لا بد من اجتماع عقول كثيرة للحصول على المطلوب على أحسن منوال بحيث تكون نتائج بحث وجهاد العقل الواحد في أمر ما ميسورة الحصول لعقل آخر أو أكثر. وهذا الاجتماع لا يتيسر الحصول عليه من دون اجتماع القبائل والشعوب، وامتزاجهم معاً، بحيث لا يفوت قوماً فوائد قوم آخرين. وكذلك من شأن العلوم أن لا تورث خلافاً للأملاك والنقود، بل انما تستلزم اجتهاداً شخصياً. وهي كالضيوف لا تثبت إلَّا عند مَن قام بحق ضيافتها.

ثانياً: إن العقل البشري إنما يحصل العلوم بواسطة الحواس، على سبيل التعلم والاستقراء، ومن شأنه أن لا يسع أموراً متضادة في وقت واحد. ومن ثم كان لا يمكن اجتماع العلم والرذيلة معاً. وبما أن العقل لا يجدّ في تحصيل شيء إلَّا لغاية، ولا يحتمل مشقة إلَّا إذا كانت لذة ما يطلبه أقوى منها، قلما تُطلب العلوم لذاتها. والعقل قد يكون في حالة السبات أو الانتباه من هذا القبيل. ولا يخفى أن المناخ، والعادات الخصوصية، لها تأثير شديد في العقل من هذا القبيل وأنه يوجد تفاوت في العقول من جهة الاستعداد للعلوم بين قوم وقوم، كما يوجد بين الأفراد. وما أشد تأثير الميل والحكم السابق في العقل من جهة تحصيل العلوم ومعرفة الحقائق.

ثالثاً: لا بد للعقل من وسائط اسعافية خارجية عنه لاكتساب العلوم. فمن أعظم هذه الوسائط الانتقال والسياحة من مكان إلى مكان، ومطالعة الكتب، ووجود الآلات التي لا يمكن الحواس التوصل إلى المطلوب بدونها، والأسباب المحركة التي تنبه العقل وترغبه في ذلك، والمثال، والحماسة المنغرسة طبعاً في الانسان. ولا يخفى ان حرية الفكر هي من أكبر المطلوبات لإدراك الحقائق وتحصيل العلوم لأن الفكر المستعبد لا يمكن أن يكون فيه استعداد كما يجب للعلوم. وبما أن الخطب تحسب، وقد وجدت في البلدان المتمدنة، من أكبر الوسائط وأحسنها لنشر المعارف بين العموم، قد تحرك البعض من الذوات المعتبرين من سكان هذه البلدة [بيروت] من افرنج وأبناء عرب إلى الانتظام في عمدة تعرف «بعمدة الخطابات» لأجل تمكين الطلبة الراغبين من الحصول على هذه الواسطة. وباستدعاء وطلب هذه العمدة، قد وقفت الآن أمام سيادتكم لأجل صرف حصة من الوقت في البحث عن الموضوع المتقدم ذكره وهو آداب العرب، فأقول:

إننا كثيراً ما نسمع أبناء العرب يتباهون متفاخرين بكون أجدادهم الاقدمين هم الذين أنعموا على العالم بالعلوم والفنون، مع أن الأكثرين منهم لم يتيسر لهم الوقوف على الحقيقة. ونحن شديدو الاعتقاد بصحة قول بعض الأفاضل:

لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

وبأن وصول أجدادنا إلى أعلى طبقة من العلوم لا يجعلنا علماء، ولا يوجب لنا حق الافتخار، إذا لم نكن نحن أنفسنا كذلك. فقد رأينا أن نذكر بعض قضايا تاريخية من هذا القبيل يتبين منها مقدار جهاد المتقدمين ودرجة فضلهم في هذا الأمر، ويستعين بها المتأخرون من أبناء هذا الزمان على الوقوف على الحقيقة. وعسى أن تكون وسيلة لحثهم وترغيبهم في اقتفاء آثار أسلافهم. وقد قسمنا خطابنا هذا إلى ثلاثة أقسام وهي الآتية:

القسم الأول:

في حالة العلوم بين العرب قبل ظهور الاسلام

إن العرب قبل ظهور الاسلام أي في أيام الجاهلية كانوا قوماً أميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة إلاَّ القليل منهم. والعلوم التي كانوا يتفاخرون بها فهي علم لسانهم وأحكام لغتهم ونظم الأشعار وتأليف الخطب. وكان لهم مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق. ومع أن الله لم يمنحهم شيئاً من علم الفلسفة ولا هيأ طبائعهم للعناية به كانوا في أعلى طبقة من نباهة الفكر وفصاحة اللسان وسرعة الخاطر حتى انهم كانوا يأتون ارتجالاً بما لا يقدر عليه غيرهم بعد التروية والاستعداد. والذي ساعدهم على ذلك شدة محبتهم للغزو والغارات والمفاخرة في الكلام نظماً ونثراً مع حسن البلاد التي قطنوها. وقد كانوا إذ ذاك: **أهل مدر**، وهم سكان المدن والقرى وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخيل والماشية والضرب في الأرض للتجارة. **وأهل وبر**، وهم سكان الصحارى وكانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها منتجعين لمنابت الكلأ مرتادين لمواقع القَطْر فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي ثم يتوجهون من هناك في طلب العشب وابتغاء المياه فلا يزالون في حل وترحال كما قال بعضهم عن ناقته:

تقول إذا ذرات لها وضيني أهذا دينه أبداً وديني
أكل الدهر حل وارتحال أما يبقي عليَّ ولا يقيني

وكان ذلك دأبهم زمان الصيف والربيع فإذا جاء الشتاء واقشعرت الأرض وانكمشوا إلى أرياف العراق وأطراف الشام فشتّوا هناك مقاسين جهد الزمان ومصطبرين على بؤس العيش.

قيل وكان العرب في تلك الأيام يجتمعون كل سنة في سوقي مكة وعكاظ يقيمون هناك شهراً وقيل عشرين يوماً يتبايعون ويتناشدون الأشعار ويتفاخرون فيها. وكانوا إذا انتهوا من ذلك يكتبون أشعار الفئة الظافرة بأحرف ذهبية على نسيج من الحرير المصري ويعلقون ذلك على الحجر الأسود في الكعبة. ومن ثم سميت تلك الأشعار بالمذهبات والمعلقات. ومما وصل إلينا من أشعارهم المعلقات السبع المشهورة وهي أشهرها. ولم يزل ذلك دأب العرب حتى ظهر الاسلام في أوائل القرن السابع للمسيح فآمن قوم منهم وجدثت بين من آمن ومن لم يؤمن حروب ومنازعات كثيرة لا محل لذكرها هنا.

والتاريخ لا يساعدنا كثيراً على الوقوف جلياً على حقيقة حالهم من هذا القبيل لتقادم عهدهم وعدم اعتنائهم في هذا الفن اللطيف.

القسم الثاني

في حالة العلوم بين العرب بعد ظهور الاسلام

قال القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي: إن العرب في صدر الإسلام لم تعتن بشيء من العلوم إلاَّ بلغتها، ومعرفة أحكام شريعتها، حاشا صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرّاً إليها. ولا يخفى أن اشتغال العرب في تلك الأيام بالحروب وفتح الأقاليم والبلدان وشدة ميلهم إلى الغزو والغارات وفرط عنايتهم في توسيع دائرة حكمهم ألهتهم عن الالتفات إلى أمر الآداب والعلوم. قيل إنه لما فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية سنة ٦٤٠ للمسيح في خلافة عمر بن الخطاب وذلك بعد محاصرتها مدة مستطيلة تقدم إليه يحيى الاسكندري اليعقوبي المعروف بالنحوي وقال له يوماً بعد ملازمته إياه وتقربه إليه: «إنك قد أحطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها. فما لك به انتفاع لا أعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به». فقال له عمرو: وما الذي تحتاج إليه. قال: كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية فقال له عمرو: لا يمكنني أن أمنَّ بها إلاَّ بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكتب عمرو إلى عمر وعرفه قول يحيى فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: «وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله غنى عنه وإن كان ما فيها يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدم باعدامها». فلما وصل كتاب أمير المؤمنين شرع في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها فاستوقدت بها مدة طويلة. قيل: وكان عدد كتبها أربعمائة ألف كتاب. قال أحد المؤرخين عند روايته هذه القصة: فاسمع ما جرى وأعجب. وإذا صح ان هذه الخزانة المسماة بتحف خانة «سرابيون» كانت تشتمل على كتب علوم الهند ومصر واليونان كان احراقها خسارة عظيمة لا يمكن تعويضها. ولا بد من ان العرب عندما استفاقوا من غفلة الجهل والغباوة بعد تلك الحادثة بقليل يكونون قد شاركوا بقية العالم في حاسيات الحزن والأسف على فقد هذه الخزنة المعتبرة التي بذل البطليموسية [البطالسة] والقياصرة أموالاً جسيمة في جمعها. وذلك برهان على صحة ما ذكرناه من كلام القاضي المذكور من أن العرب في صدر الاسلام لم تعتن بشيء من العلوم وأنهم لم يكونوا يعتبرون شيئاً من الكتب إلاَّ القرآن. ولكن نفورهم من الأمور العلمية كان يتناقص بالتدريج بقدر إمتداد ديانتهم وملكهم. ولا ريب إن امتلاكهم للبلدان السعيدة التي كانت مقراً للذوق والرونق القديم، ولَّدت فيهم روح لطف وتمدن. فكان تقدمهم في هذا الأمر سريعاً وعجيباً كما كان في ميادين الحرب. ولما كان الجهل والتبرير مستولين بسطوة شديدة على كل قسم من البلدان الافرنجية وذلك بسبب الحروب الثائرة، والمنازعات المتمكنة بين ملوكها ورعاياها، بحيث لم يبق للعلوم والآداب سوق ولا محام، وجدت العلوم والفنون في مدارس العرب ملجأ تستظل فيه مرتاعة من غدر تلك الأزمان، وغباوة تلك الأجيال المظلمة. ومع أن آداب اليونان اقتضى لها أتعاب متوالية مدة ثمانمائة سنة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في أيام باركليس، نرى أن رغبة العرب ونشاطهم في اكتساب العلوم ونجاحها كانا شديدين بهذا المقدار، حتى انه لم يمض إلاَّ مائة سنة أو أكثر قليلاً بين أعمق توحشهم وبربريتهم وبين امتداد العلوم وانتشارها في ممالكهم المتسعة. فإن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الاسكندرية سنة

٦٤١ للمسيح وسنة ٧٥٠ ارتقى العباسيون المحامون عن العلوم إلى تخت السلطنة، وذلك من أغرب وأعجب الحوادث التاريخية، حتى أن أوروبا نفسها صارت مدينونة لمخالفي ديانتها وحريتها بأثمن مثالاتها في العلوم والفنون.

فهذه كانت حالة العرب في الدولة الأموية وفي أيام هؤلاء الخلفاء كانت حكمة اليونان قد أحدثت شيئاً من التأثير في عقول العرب ولكن جيل العلوم العربية الذهبي لم يبتدىء في الشرق إلّا بعد قسمة المملكة الاسلامية وقيام بغداد. وذلك عندما تبوأ الخلفاء بنو العباس تخت السلطنة العربية سنة ٧٥٠ كما تقدم فحينئذٍ ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من ميتتها فكان أول من اعتنى منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور باني مدينة بغداد والمشهورة بالفتوحات العظيمة وكان مع براعته في الفقه كلفاً في علم الفلسفة وعلى الخصوص في علم النجوم. قيل وكان المنصور في أول أمره أدركه ضعف في معدته وسوء استمراء وقلة شهوة وكان كلما عالجه الأطباء ازداد مرضه فقيل له عن جيورجيوس بن بختيشوع النيسابوري أنه أفضل الأطباء فاستحضره إلى بغداد فأخذ الطبيب المذكور يتلطف به ويعالجه حتى برىء من مرضه وفرح به فرحاً شديداً وكان قد أحضر معه تلميذه عيسى بن شهلا وأقام عند المنصور حتى مرض ولما اشتد مرضه طلب الانصراف إلى بلده فقال له أمير المؤمنين إنني منذ رأيتك وجدت راحة من الأمراض فقال أنا أخلف بين يدي أمير المؤمنين عيسى تلميذي فهو ماهر فأمر له بعشرة آلاف دينار وأذن له بالانصراف وأمر باحضار عيسى بن شهلا فلما مثل بين يديه سأله عن أشياء فوجده ماهراً فاتخذه طبيباً. فصارت العرب بهذا الاتفاق مدينونة لبختيشوع الطبيب النيسابوري المذكور في دخول صناعة الطب الشريفة بينهم.

وكان لهارون الرشيد شهرة عظيمة في الرغبة والهمة والنشاط في إحياء العلوم والآداب ونشرها في مملكته المتسعة. وكان هو نفسه ماهراً في الشعر والموسيقى ومغرماً بهذين الفنين المستظرفين. وقد كتب في أيامه تصانيف كثيرة في علوم المملكة الاسلامية. وقد جمع في بلاطه جمعاً غفيراً من أكابر وفحول العلماء فكان أقرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء. فكان يحسن مثواهم ويجزل عطاءهم ويرفع منزلتهم. فأضحت العرب مدينين كثيراً له في أمر تقدمهم السريع في الآداب لأنه سنَّ شريعة أنه حيثما بني جامع في مملكته يبني بجانبه مدرسة للآداب. وكان كلما سافر إلى مكان أو قصد الحج يستصحب معه مائة من علماء زمانه. وكان يعتبر العلم أينما وجد والعلماء مهما كان مذهبهم فلم يكن يزدري بمعرفة من يخالفه في أمر المذهب. فإن رئيس مدارسه وأول مدير للعلوم في المدارس العالية في مملكته كان رجلاً نصرانياً نسطورياً دمشقياً اسمه يوحنا بن ماسويه. وقد اقتدى بمثاله هذا الذي يدل على جودة عقله وكرم أخلاقه، خلفاؤه. وهكذا لم يمضِ إلّا قليل حتى امتدت الآداب التي كانت تعلم في العاصمة منتشرة إلى أقصى الخلافة.

ولكن اوغسطوس الآداب العربية هو الخليفة عبدالله المأمون بن هارون الرشيد. فإنه لما أفضت الخلافة إليه تمم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه وكان منذ نعومة أظفاره مولعاً بالمطالعة والدرس وقد اتخذ في حياة والده صحابة له من مشاهير علماء اليونان والعجم والكلدان، ولما تبوأ تخت السلطنة لم تلهه مهماتها وعظمتها عن الاعتناء بالعلوم والقيام بحقها وحق أربابها. فكانت الشعراء والفلاسفة والمهندسون تتوارد إليه إلى بغداد من كل بلاد وملّة. وقد أمر سفراءه ونوابه في أرمينية وسورية ومصر أن يجمعوا ما يمكن وجوده فيها من الكتب الأكثر اعتباراً ويبعثوا بها إليه. فكانت ذخائر آداب الأقاليم التي تغلب عليها تجمع بكل اعتناء وتوضع أمام عرشه كأعظم جزية وأفخر التحف والهدايا عنده. فكانت ترى مئات من الجمال داخلة بغداد حاملة كتباً من آداب اليونانيين والعبرانيين

والعجم. وقد داخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه منها ما حضرهم فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها. وهكذا كان بلاطه ببغداد مؤلفاً من المعلمين والشراح والمترجمين فكانت بغداد مدرسة علمية كما كانت عاصمة مملكة. وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم، علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده قد صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا في ما يرغب فيه أهل الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس في دقة الصنائع العلمية والتباهي بأخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى الشهوانية إذ علموا أن البهائم تشاركهم فيها وتفضلهم في كثير منها. ولهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر توحش الدنيا لفقدهم. قيل إن المأمون إذ كان يعلم بوجود خزائن متسعة من التصانيف العلمية في مكتبة القسطنطينية فلما عقد الصلح مع ميخائيل الثالث ملك الروم جعل أحد شروط الصلح والمعاهدة أن الملك ميخائيل يبعث إليه مجموعاً من التصانيف المعتبرة النادرة الوجود الموجودة في المكتبة المذكورة. وما صدق أن وصل ذلك إليه حتى أمر أحذق علماء بلاطه بترجمته إلى لغته العربية المشرفة. قيل وبعد تتميم ترجمة تلك الكتب المعتبرة، فبغيرة مفرطة على شرف لغته، أمر بإحراق النسخ الأصلية. وفي أيام المأمون انشئت مدارس كثيرة كلية في بغداد والبصرة وأماكن أخرى وجمعت مكاتب شتى في مواضع مختلفة. قيل إن المأمون عرض مبلغاً وافراً على ملك الروم ووعده بالصلح الدائم والمصادقة إذا بعث إليه بليو الفيلسوف اليوناني الشهير.

ومن الخلفاء الذين حاموا عن العلم والعلماء وصرفوا الهمة في اكتساب الآداب واتقانها الواثق. وكان ماهراً في فني الشعر والموسيقى وكان له ميل زائد إلى التنجيم. قيل إنه لما اشتد مرضه أحضر المنجّمين فنظروا في مولده فقدروا له أنه يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم إلّا أنه لم يعش بعد قولهم إلّا عشرة أيام. وآخر خليفة ألقى آخر نور على أنباء بلاده هو المستنصر فإنه زين بغداد بمدرسة عظيمة سماها بالمستنصرية. قيل ولم يكن في الممالك الاسلامية نظير لتلك المدرسة في صورتها وآلاتها واتساعها وزخرفها وكثرة فقهائها وأوقافها. وقد رتب فيها جمعاً غفيراً من المدرسين والفقهاء وبنى لهم داخل المدرسة حماماً خاصاً ورتب للفقهاء طبيباً خاصاً يفتقدهم كل يوم وأقام لهم من المشاهرات والخبز والطعام ما يكفيهم ويفضل عنهم.

هذا وإن كثيراً من الوزراء والنواب حذوا حذو ملوكهم في تقوية العلوم وامتدادها في الأماكن البعيدة عن العاصمة. فإن مصر مثلاً بقيت أجيالاً كثيرة مزينة بالعلم والعلماء حتى كنت ترى فيها مدارس للعلوم في كل مدينة وبلدة وقرية. قيل إن أحمد بن طولون نائب مصر كان يوزع كل شهر على مشايخ بلاده ألف دينا وكان يرسل إلى بغداد لأجل التوزيع على علمائها وفقرائها نحو ٢,٢٠٠,٠٠٠ دينار. وكانت فوائد التعليم في هذه المدينة تمتد في أوقات مختلفة إلى ستة آلاف تلميذ من كل رتبة من ابن الشريف إلى ابن الصناعي. وحسن مدارسها يظهر من كثرة عدد الشعراء والمؤرخين والأطباء والمنجّمين الذين خرجوا منها. فقد كانت تنشأ مدارس صغيرة وكبيرة ومكاتب في كل بلدة. والبصرة والكوفة كادتا تساويان العاصمة نفسها في الشهرة نظراً إلى عدد المعلمين المشهورين الذين خرجوا منها وكثرة التصانيف المعتبرة التي ألفها علماؤها. وكذلك دمشق وحلب وبلخ وأصفهان وسمرقند كان بها كثير من المدارس والمكاتب المعتبرة وقد خرج منها جمع غفير من فحول العلماء المدققين الذين لا يسعنا الوقت لذكرهم. ولا ينبغي أن نغفل عن ذكر القيروان وفاس ومراكش من أعمال المغرب التي كانت مزينة بمدارس سامية ومكاتب معتبرة لأجل تعليم المغاربة الذين كانوا قديماً ولم يزالوا إلى الآن في أعلى

طبقة من الحذق والنباهة. وبواسطة مدارس المغاربة ومكاتبهم المشهورة قد حفظ للغيرة الافرنجية في القرون المتأخرة ذخائر ثمينة وكنوز فاخرة من العلوم والفنون.

غير أن البلاد التي تلألأت فيها الآداب العربية بأكثر لمعان واشراق وبقيت فيها مدة طويلة بعد أن درست في البلدان المشرقية هي بلاد اسبانيا. فإن كردوفا وسيفيلي وغرنادا [قرطبة واشبيلية وغرناطة] كانت تفاخر احداها الأخرى في عظمة مدارسها ومكاتبها. وقد كان في مدينة كردوفا وحدها نحو مائة وسبعين رجلاً من فحول العلماء من أهاليها. وكان فيها مكتبة عظيمة تحتوي على نحو أربعمائة ألف كتاب. وكان في حوزة المتوكل الذي تسلم زمام الحكومة في الجيل الثاني عشر مكتبة معتبرة تحتوي على كتب نفيسة كان منها مائة وعشرون مؤلفاً في الإلهيات والتاريخ والفلسفة ولم تزل نسخ منها محفوظة إلى الآن في مكاتب أوروبا المعتبرة. وكان في مملكة الأندلس وحدها سبعون مكتبة وسبع عشرة مدرسة كلية.

فمما تقدم بيانه يتضح لنا شدة حرص العرب في تلك الأيام على اكتساب العلوم والآداب، واجتهادهم في نموها وانتشارها. وإذا حققنا النظر في ما وصل إلينا من فضلات علومهم وآثار جهادهم، نرى انهم، وإن يكونوا قد أخذوا علوماً وفنوناً كثيرة عن اليونان والعجم والكلدان بواسطة الترجمة والاقتباس، لا يمكن أن يسلم بأنهم إنما كانوا متقلدين لا مخترعين، كما يزعم بعضهم. لأننا نرى أن نفس العلوم التي سبقت الإشارة إلى أنهم ترجموها من لغات أجنبية قد اخترعوا فيها وزادوا عليها أموراً كثيرة جداً. فإن فنّ الطب مثلاً الذي وجد قبل انتباه العرب إلى العلوم بأجيال كثيرة وينسب اختراعه إلى أبقراط اليوناني وتوسيعه إلى جالينوس كان لم يزل ناقصاً حتى كمّله ابن سينا بعد أن كان الرازي قد جمع أبوابه المتفرقة في كتاب سماه بـ الحاوي. وصناعة الكيمياء فإنها كانت قبل العرب فناً قد سرت إليه الأوهام الفاسدة وداخلته الشعبذيات الكاسدة فأخذته العرب واخترعت فيه أموراً كثيرة حقيقية وأدخلته في علم الطب مع انه كان قبل أيامهم من أبواب السحر يستخدم لأجل تحويل المعادن إلى ذهب بواسطة حجر الفلاسفة الذي كان الأقدمون يظنون أنه ذو خاصية لسحر الأرواح الخبيثة وشفاء الأمراض وإطالة الحياة إلى ما شاء الله. وهكذا القول في أكثر العلوم الأخر التي أخذتها العرب عن الأجانب. وأما العلوم التي لا يشك في كونها من اختراعات العرب فهي كثيرة يحتاج إلى وقت مستطيل لتعداد مفرداتها وتصانيفها. فإننا إذا أمعنا النظر في العلوم المتعلقة باللغة العربية التي كانت قبل الاسلام لغة عديمة الضوابط والقوانين ومتفرقة على ألسنة قوم لم يكن لهم إلتفات إلى العلوم والفنون ولا حظّ في صناعة الحروف والتأليف، نرى أن العرب قد صرفوا الهمة في إيجادها. فوضعوا لهذه اللغة العجيبة ضوابط وقوانين لأجل صيانتها من الفساد، ورتبوا لها كتب لغة مشهورة قد جمعوها عن ألسنة العرب لأجل حفظها، وجعلوا لها فنوناً كثيرة مستظرفة كالمعاني، والبيان، والبديع، والعروض، وهلمَّ جُراً، لأجل تهذيبها وتحسينها. وكذلك الأشعار التي وجد عند العرب منها أكثر مما وجد عند باقي شعوب العالم جميعاً لم تكن إلاَّ من نتائج اجتهادهم وجودة قريحتهم. ومن الغريب أنه مع وجود أشعار هوميروس وورجيليوس [فيرجيل] وغيرهما من شعراء اليونان واللاتينيين المشهورين لا يوجد في أشعار العرب شيء مقتبس منها. وقد ألفوا كتباً شتى في علم الفلك والتاريخ ورسم الأرض والفلسفة والالهيات والطبيعيات والحساب والجبر والمساحة والخطب والزراعة والنباتات والموسيقى والفقه وبين ذلك فنون قد تعلّلوا بها كالكهانة والعرافة وضرب الرمل وزجر الطير وقيافة الأثر والسحر والطوالع ونحو ذلك. وقد كثرت في جميع ذلك تصانيفهم ومحاوراتهم كما يتضح لمن وقف على فهرست التآليف العربية التي بقيت مع مرور الأيام وتقلب الأزمان محفوظة لتكون دستوراً ومنخساً للمتأخرين. قيل إنه

يوجد في مكتبة باريز الملكية أكثر من مائتي مؤلَّف في صناعة النحو وحده. وممن كان فرد زمانه في فنه: أبو بكر الصديق في النسب، وابن أبي طالب في القضاء، وابن كعب في القراءة، وابن ثابت في الفرائض، وابن عياش في التفسير، ووهب في القصص، وابن سيرين في التعبير، وأبو حنيفة في الفقه، ومقاتل في التأويل، والخليل في العروض، والمتنبّي في الشعر، والأشعري في الكلام، والحريري في المقامات، والرازي في الطب، وابن حنبل في السنّة، وأبو معشر في النجوم، وابن نباتة في الخطب، والقاضي الفاضل في الإنشاء، والأصمعي في النوادر، وابن سينا في الفلسفة، وابن جابر في الكيمياء، وأبو الفداء في التاريخ، والفارابي في الطبيعيات، والإدريسي في الجغرافيا، والغزالي في الإلهيات، وغيرهم في غيرها. هذا ولا ينبغي أن ننسى إخوتنا الأعجام الذين تعلموا لغتنا العربية وزينوها بتصانيفهم المدققة. ومع ان الافرنج قد أخذوا تلالاً لا بل جبالاً من الكتب العربية مما لم يبق له عين ولا أثر عند العرب نرى ان التصانيف التي أبقتها لنا صروف الأيام هي وحدها كافية لأن تبرهن لمن وقف عليها الأمور الآتية وهي:

أولاً: جودة العقل العربي، وحسن استعداده لتحصيل العلوم، ولا سيما ثلاثة أنواع منها، وهي: العلوم الطبيعية، والعلوم الرياضية، والعلوم اللغوية. حتى انه لا يوجد في العالم قوم يقدرون أن يفوقوا العرب، حتى لا نقول أن يدركوا طبقاتهم فيها.

ثانياً: ثبات العرب وتجلدهم في مقاساة المشقات والمصاعب المقترنة طبعاً بتحصيل العلوم، وذلك لدى وجود الأسباب المحركة إليها. ويزيد ذلك وضوحاً، إذا اعتبرنا قلة الوسائط وضعفها في تلك الأيام. فإن البخار والسيّال الكهربائي كانا حينئذٍ غير خاضعين للإنسان وكانت المطبعة التي تحسب من أكبر قوّات العالم، والنظارة المكبرة التي قلبت كثيراً من مبادىء الأولين من أساساتها، لم تزل مستورة تحت ظل الغوامض. وكانوا مع فقد صناعة الطبع يلتزمون أن يوجدوا كل ما أوجدوه من هذا القبيل بواسطة رأس قناة صغير الجرم ضعيف العزم. وكذلك قوة الانثى التي هي أكبر قوة في الدنيا كانت في تلك الأعصار محصورة في لجج بحار الجهل العميق والغباوة الشديدة. وكثيراً ما كانت هذه القوة تستخدم لأجل الضرب على رأس العلم في نعومة أظفاره. وعدم تحزب هذه القوة للعلم والعلماء كان من أكبر الأسباب لفقد العرب العلوم بهذا المقدار من السرعة.

ثالثاً: فضل العرب على العالم في هذا الأمر، وذلك من أوجه عديدة، منها: إنه فيما كانت العلوم والآداب في خطر الفقد والتلاشي بسبب الحروب، والمنازعات، والفتن الأهلية في العالم الغربي، وجدت لنفسها في مدارس العرب ملجأ تأوي إليه، فحافظ العرب على الحلقة المتوسطة من سلسلة العلوم التي تربط العلوم القديمة بالعلوم الجديدة. ولولا وجود هذه الحلقة لكنت ترى خلاء متسعاً بين العلوم القديمة والحديثة لم يكن سبيل إلى ملئه. ومنها: إنه فيما كانت أوروبا غائصة في لجج الجهل والغباوة في أجيالها المظلمة فتح العرب مدارسهم لقبول شبَّان الإفرنج عندما استفاقوا من غفلتهم ووصلت العلوم تحت ظل وحماية الهلال الإسلامي إلى حدود بلادهم. وهناك ناولتهم الإسلام باليد اليسرى أضعاف ما كانوا قد تناولوه منهم منذ نحو خمسمائة سنة باليد اليمنى. وهكذا شربت شبان فرنسا وايطاليا وجرمانيا وانكلترا في مدارس اسبانيا من ينابيع آداب العرب المتدفقة. وفي سالرنو ومنتبلر [مونبلييه] وقفت تلاميذ النصارى المتواردة إلى هناك من جميع أقسام أوروبا لأجل تعلم الطب على تصانيف أبقراط وجالينوس حتى أن اليهود واليونان لم يأنفوا من تعلم صناعة الشفاء من العرب.

ومن ذلك: إن العرب هم الذين بواسطة قدوتهم وحسن صنائعهم نبّهوا الافرنج في أجيالهم المظلمة من سباتهم الثقيل إلى طلب العلوم والصنائع وذلك يسلم به الافرنج أنفسهم ولا ينكرونه.

رابعاً: فضل اللغة العربية وطواعيتها في قبول العلوم من دون احتياج إلى استخدام لغات أجنبية، إلّا في ما ندر. وبما أن اللغة هي من أقوى الوسائط لوجود الآداب، وانتشارها بين أهلها، لا بأس إذا توسعنا قليلاً في الكلام على اللغة العربية وما يتعلق بها على وجه الاستطراد فنقول:

لا سبيل إلى الشك بأن اللغة العربية هي من أقدم لغات العالم وأكملها وأشرفها ولولا الخوف من أن تطلب مني البيّنة لكنت أدّعي لها بأنها هي اللغة التي أُنزلت على قلب أبينا آدم في الفردوس الأرضي. وأقل ما أرغب أن ادّعي لها به هو أنها مع أختيها، وهما اللغة السريانية واللغة العبرانية، أغصان متفرعة أو فضلات باقية من تلك اللغة الآدمية المنزلة. والبائن من تاريخ هذه اللغة أن الله قد حفظها بنوع عجيب لغايات لا تدرك من تقلبات الأيام وصروف الدهر. ومع أن أصحاب هذه اللغة وصلوا إلى أحط درجة من الجهل والبربرية بقيت اللغة محفوظة عندهم بواسطة التقليد والنقل مصونة من الفساد والتشعب إلى لغات شتى بخلاف لغات أوروبا. وبعد أن خضعت لسلطان القلم الاسلامي صار بذل العناية وصرف الهمة باختراع وسائط قوية لحفظها سالمة صحيحة. واتساع قاموسها وغناها في الألفاظ والمعاني يجعلانها في الرتبة الأولى من اللغات حية كانت أو ميتة. وكثرة عدد المتكلمين بهذه اللغة وكون الأراضي والأقاليم والبلدان التي هي منتشرة فيها من أوسع وأحسن ما يوجد لأي لغة كانت يجعلان مستقبلها أهم وأعظم من باقي اللغات في العالم. واعتبار أهلها لها واحترامهم لقدميتها وفضلها صَيَّراها غير قابلة للتغير كعادات أهلها. ومع ما نراه من شدة ميل أبناء العرب ولا سيما في هذه الأيام إلى اللغات الأجنبية وعدم إلتفاتهم إلى لغتهم الشريفة لا نخشى عليها من حوادث الدهر. لأن ذلك وقتي ناتج عن أسباب توجب زهداً في اللغة العربية ورغبة في اللغات الافرنجية. وهذه الأسباب سلبية كانت أم إيجابية لا بد من زوالها وبذلك يزول ما تسبب عنها. وما دام القرآن من الجهة الواحدة والكتب العربية في فنون مختلفة من الجهة الأخرى مظللة على هذه اللغة يغلب الظن بأنها تثبت غير منحصرة في دائرتها الحالية وهي: الهند وجزيرة العرب وشمالي افريقية، بل ستمتد شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بين أقوام آخرين ممن يقرون لها بالفضل وإن كانوا لا يستطيعون التكلم بها. ومع اننا نرى العجم والترّ والافرنج من الجهة الواحدة آخذين في توسيع دائرة لغاتهم، وإدخالها بين العرب والمتفرنجين من الجهة الأخرى آخذين في إفساد وإماتة لغة أمهم بواسطة إبدالهم كلماتها المأنوسة بكلمات أجنبية نافرة لا تليق للغة العربية كما أن ملبوس أهلها لا يليق للعرب، لا بد من قيام أناس من أبناء العرب الغيورين على لغتهم يسقون مقداراً كافياً من الأفيون «للكومسيون والسيكورته وسكوزمي وأفندم» وما ضاهاها فيغمى عليها بحيث لا يبقى أمل في صحوها. ويضعون قنينة من روح النشادر أمام أنف العمالة والضمانة ولا تؤاخذني ويا سيدي وهلمَّ جراً من الكلمات العربية التي تدل على المعاني المدلول عليها بالألفاظ المذكورة فتستفيق من سباتها. وبهذه الوسيلة يزول الفساد الطارىء على اللغة العربية والذوق العربي من هذا القبيل. على انه كما ان الناس تحتاج إلى الناس كذلك اللغات تحتاج إلى غيرها ولكن يجب الإقتصار على ما لا يوجد له في أصل تلك اللغة مما يزيدها قوة وحسناً لا تنافراً وثقلاً.

هذا ولا ينبغي أن نغفل عن تلك الكلمات النافرة الميتة الموجودة في قواميس اللغة العربية مما لا فائدة منه للعرب إلّا التثقيل على الذهن العربي والقلم الشرقي. فهذه الكلمات يجب إلحاقها بالكلمات

الأجنبية المارّ ذكرها أو استخدامها لمعان أو مواد جديدة لم يصل إليها العقل العربي ولا الصناعة العربية أو إبدالها بكلمات من اللغة الدارجة مما جعل له الإستعمال قوة لا يمكن تحصيلها بغيره.

ومما لا يشك به أن منبع الكلمات المترادفة الكثيرة الوجود في اللغة العربية المكتتبة هو اختلاف القبائل التي تكلّمت بهذه اللغة. ولا يصدق أن بني قريش، أصحاب اللغة الفصحى، كان عندهم خمسمائة اسم للأسد. والظاهر ان الذين جمعوا متفرقات هذه اللغة عن ألسنة العرب، فلأجل شدة إهتمامهم وحرصهم على حفظها كاملة من دون أن يفقد منها شيء، جمعوا كل ما وجدوه من موادها بين العرب الذين كان لكل قبيلة منهم لغة خاصة واصطلاحات جارية عندها دون غيرها. والبعض يحسبون أن كثرة المرادفات في العربية غنى لها، والحال إن ذلك لا يجب أن يحسب غنى لأنه لا يفيد زيادة في المعاني التي هي المقصود الأصلي من اللغات. واللغة التي يوجد فيها ألفاظ كثيرة لمعنى واحد مع انه يوجد معانٍ كثيرة لا يوجد لها فيها ألفاظ للتعبير بها عنها هي في الحقيقة فقيرة لا غنية وأهلها فقراء لا أغنياء. ويتضح مقصودنا في ما تقدم مما يأتي.

قيل مرَّ ذات يوم أبو علقمة ببعض طرق البصرة وهاجت به مرة فوثب عليه قوم يعصرون إبهامه ويؤذنون في إذنه فأفلت منهم وقال: ما بالكم تكأكأتم عليَّ تكأكؤكم على ذي جنة، افرنقعوا عني (أي ما بالكم اجتمعتم عليَّ اجتماعكم على مجنون، اعتزلوا عني). فقال بعضهم: دعوه فإن جنيته تتكلم بالهندية.

قيل إن أعرابياً إصطاد يوم سنوراً ولم يعلم ما هو فَلقيه رجلٌ فقال: ما هذا السنور. ثم لقيه آخر فقال: ما هذا القط، ثم لقيه آخر فقال: ما هذا الهر. ثم لقيه آخر فقال: ما هذا الضيون. ثم لقيه آخر فقال: ما هذا الخيدع، ثم لقيه آخر فقال: ما هذا الخيطل. ثم لقيه آخر فقال: ما هذا الدم. ولو لقيه آخر في هذه الأيام لقال: ما هذا البسين. فقال الاعرابي في نفسه: أحمله إلى السوق وأبيعه فسيجعل الله لي فيه مالاً كثيراً. فلما أتى السوق قيل له بكم هذا؟ قال: بمائتي دينار. فقال له: إنما يساوي نصف درهم. فاحتمى الاعرابي غضباً ورمى به إلى الأرض وقال: تبّاً له ما أكثر أسماءه وأقل ثمنه.

وبما أن العرب كانوا يكرمون الإبل ويعظمونها لأنهم كانوا يكتسون بوبرها، ويغتذون بلحومها ولبنها، وكانت هي تقوم بكامل خدمتهم الارتحالية بمنزلة عربات برية، أو مراكب بحرية، ترى لغتهم مشحونة من الألفاظ المتعلقة بهذا الحيوان الهائل الجسم العظيم القدر. فلا يوجد عضو للناقة إلّا وله إسم خاص، ولا توجد لها حالة أو معنى إلّا وقد أوجدوا لها كلمة تدل عليها، حتى صرنا إذا راجعنا قاموس العربية نجد فيه ألوفاً من الكلمات التي تنبعث منها رائحة النوق والجمال. ويمكننا أن نقول، على سبيل المبالغة، إنه يوجد في اللغة العربية عبارات للناقة تكاد تساوي وبرها عدداً. فما هي الفائدة للحضر من هذه العبارات مع استغنائهم بالعربات عن خدمة الإبل؟ وبقرقعة دواليب المراكب النارية عن عجيجها؟ وبرائحة الفحم الحجري عن رائحتها؟ فهنا محل واسع للاصلاح ونقل ما يمكن نقله من تلك العبارات البدوية إلى موضوعات حضرية يضطر إلى وسائط التعبير عنها كل من ألقاه الدهر في وسط جماعة متمدنة.

هذا وان حالة العلوم المتعلقة باللغة العربية كالصرف والنحو مثلاً ليست بأقل احتياجاً من اللغة نفسها إلى الإصلاح من هذا القبيل. فإنها في حالتها الحاضرة لا توافق الذين يقصدون العلوم طلباً لنوال ما يترتب عليها من أمر المعيشة. وذلك لأن كامل حياتهم بالكد يكفي لتحصيلها على حقها.

وهذا من جملة الأسباب التي تجعل أهلها يهملونها بالكلية، أو يتخذون لغة أو لغات أجنبية ضرائر لها. وهل يليق بالانسان الذي إنما جعلت له اللغة واسطة وباباً للعلوم أن يجعلها غاية ويصرف حياته كلها واقفاً أمام ذلك الباب يتفرج على نقشه وزخرفه الخارجي مع إيقانه بأنه يوجد وراءه تحف قديمة وحديثة تسلب القلب وتخلب الألباب. وصاحب العقل السليم لا يسعه الجهل بأن منهج الأقدمين في وضع قواعد هذه اللغة ونظامها، وإدخالهم بين تلك القواعد أبواباً من كل العلوم والفنون، وتعليلاتهم المستطيلة التي يحسبها البعض منزلة مع انها ليست إلاّ مناسبات حصلت بعد الوقوع، تلهي أبناء هذا الزمان عن الالتفات إلى الأمور الحقيقية وتشغل وقتهم عن الوصول إلى الفنون المفيدة. ولا شك إن ذلك هو من جملة الأسباب التي أوجبت فقد العلوم من بين العرب. ومما لا ريب فيه إنه يجب وضع قاموس اللغة العربية، والعلوم المختصة بها بالذات، في قالب يجعل تحصيلها في ظرف سنة ميسوراً لأهلها الذين نباهتهم في اكتساب اللغات الغريبة في المدة المذكورة يشهد بأنه لا يجب أن يصرفوا أكثر منها في تعلم أصول لغة قد رضعوها مع اللبن. ولكن إذا وجد قوم من أصحاب الغنى والخطر يلذ لهم الفحص عن الأمور القديمة والتفتيش على المواد السالفة، ويقصدون ذلك بالذات،فلنترك لهم الحرية التامة في هذا الأمر ونكلفهم بالمحافظة على اللغة القديمة ولندع تكاكؤ الأعرابي، وأساجيع الحريري، وفيروزابادايات الفيروزابادي، موضوعات لتأملاتهم الدائمة، ودرسهم الأبدي. والظاهر أن هذا الاصلاح محفوظ للأجيال المستقبلة.

وهو مستغن عن البيان أن اللغة من شأنها أن تنمو بنموّ معارف أهلها وفنونهم وصنائعهم ومتاجرهم واختراعاتهم. ومن ثم كان وضع حد للألفاظ والمعاني في لغة قوم مما لا تجوز محاولته ولا يمكن اجراؤه. لأنه إذا وضع حد معلوم لألفاظ لغة ما، كما هو الحال في اللغة العربية التي منذ أجيال كثيرة قد دخل فيها ما دخل ولم يبق باب لدخول غيره، يلتزم أصحاب تلك اللغة عند إمتداد المعارف والصنائع عندهم، لأجل التمكن من استخدام ألفاظ للتعبير عما هو في أنفسهم ولقضاء مصالحهم، أن يلتجئوا إلى لغة أجنبية أو يخترعوا كلمات جديدة حوشية. وهكذا تولدت عند العرب لغة دارجة بينهم تختلف كثيراً عن لغة الكتب. وهذه اللغة الدارجة تراها تتهدد دائماً اللغة الأصلية. وإذا طال الحال عليها هكذا تميت كثيراً من ألفاظها فوق ما أماتته، فيلتزم العرب في آخر الأمر أن يفعلوا باللغة العربية كما فعل اليونان والأرمن بلغاتهم الأصلية، ويعطوا اللغة الدارجة محل اللغة الأصلية. فتصير اللغة الأصلية لغة العلماء وأصحاب التفتيش فقط، كاللغة اللاتينية عند الافرنج. ولا يمكن أن يتصور حصول خسارة للعرب أعظم من هذه. ولكن ازدياد عدد المدارس والمكاتب والمطابع في هذه الأيام، وأملنا بالزيادة على زيادتها في ما يأتي يجعلان لنا شيئاً من الطمأنينة من هذا القبيل.

لقد تقدم القول إن أبا علي الحسين بن عبدالله الشيخ الرئيس المشهور بإبن سينا كان فرد زمانه في الفلسفة. ومما حكاه الشيخ المذكور عن نفسه يظهر لطلبة العلم لزوم الاجتهاد في تحصيله. قال:

«إن أبي كان من أهل بلخ وانتقل منها إلى بخارا في أيام نوح بن منصور واشتغل بالصرف في قرية حزمتين وتزوج أمي من قرية يقال لها أفشنة وولدت منها بها وولد أخي. ثم انتقلنا إلى بخارا وأحضرت معلم القرآن والأدب وكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضى مني العجب. وأخذ والدي يوجهني إلى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى أتعلم منه. ثم جاء إلى بخارا أبو عبدالله الناتلي وكان يدّعي الفلسفة وأنزله أبي دارنا رجاء تعلمي منه فقرات ظواهر المنطق عليه، وأما دقائقه فلم يكن عنده

منها خبر. ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح وكذلك كتاب إقليدس فقرأت أوّله خمسة أشكال أو ستة عليه ثم توليت حل الكتاب بأسره ثم انتقلت إلى المجسطي وفارقني الناتلي. ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه وتعهدت المرضى فانفتح عليَّ أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف وأنا في هذا الوقت مناهز ست عشرة سنة. ولم أزل كذلك حتى أحكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي. ثم عدت إلى العلم الإلهي وقرأت كتاب **ما بعد الطبيعة** فما كنت أفهم ما فيه والتبس عليَّ غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظاً وأنا مع ذلك لا أفهمه وأيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه. وفي ذات يوم حضرت وقت العصر في سوق الوراقين وبيد دلاّل مجلد ينادي عليه فعرضه عليَّ فرددته ردَّ متبرّم معتقداً أن لا فائدة في هذا العلم. فقال لي: أشتر مني هذا فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنه. فاشتريته، فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب **ما بعد الطبيعة** فرجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته فانفتح عليَّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب انه قد صار لي على ظهر القلب وفرحت بذلك. فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها. وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ولكنه اليوم معي أنضج».

إلى هنا ملخص ما حكاه الرئيس ابن سينا عن نفسه. ولنرجع إلى ما كنا بصدده من تاريخ آداب العرب فنقول:

وما زالت العرب كذلك حتى سقطت رغبة الملوك والأكابر في العلم فانقطعت أسباب الطلب وتعطل السعي في تحصيله ودرست مصنفاته حتى فقد كثير منها فلم يبقَ لها عين ولا أثر وكسدت بضاعة العلم وأفنى الدهر أهله واستولى الجهل بسطوة عظيمة على الناس حتى صاروا يظنون ان تحصيل العلوم أمر فاسد وسعي باطل. فلما رأت العلوم كساد بضاعتها وعدم رواج سوقها بين العرب اكتست بثياب الحداد وسارت كاسفة البال قاصدة بلاد أوروبا عن طريق المغرب واسبانيا تلتجيء هناك تحت الألوية الغربية. وإذ كان الافرنج قد زاروا البلدان المشرقية واختلطوا بالعرب مدة مستطيلة وهناك استفادوا ذوقاً جديداً ورغبة جديدة في المعارف والعلوم واطلعوا على فوائد التمدن فتحوا لها أبوابهم وقلوبهم مترحبين بذلك الصديق القديم الذي كان قد فارقهم منذ أجيال كثيرة لعدم قيامهم بحقه. ففعل كرلوس الكبير ملك فرنسا بالعلوم العربية كما فعل المأمون بالعلوم اليونانية. فأمر بترجمة أطايب تصانيف العرب إلى اللغة اللاتينية محافظاً على نسخها الأصلية خلافاً لما روي عن المأمون. وهكذا العلوم التي انتقلت من الغرب إلى الشرق من جهة القطبة الشمالية رجعت بأرباحها الوافرة من الشرق إلى الغرب من جهة القطبة الجنوبية وأخذت تنتشر في البلدان الغربية حتى وصلت إلى أقصى أطرافها. وهكذا أخذ نورها يتناقص في الشرق ويتزايد في الغرب منذ الجيل الثاني عشر حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن عند العرب والافرنج. ولا يخفى ان للافرنج فضلاً عظيماً على العرب في أمر المحافظة على كثير من التصانيف العربية الأصلية ولولا ذلك لكانت فقدت بالكلية.

فأين كان العرب؟ وأين هم الآن؟ قد مضى جيل آدابهم الذهبي، وخيم عليهم جيلها المظلم. وكان ابتداء جيلها المظلم أواخر الجيل الرابع عشر وما زال ينمو ويتزايد حتى عم البلاد والعباد. أين الشعراء؟ أين الأطباء؟ أين الخطباء؟ أين المدارس؟ أين المكاتب؟ أين الفلاسفة؟ أين المهندسون؟ أين المؤرخون؟ أين الفلكيون؟ أين كتب هذه الفنون؟ أين العلماء المحققون والأدباء المدققون؟ نعم، إنه قد

بقي في كل ملة ومذهب علوم بالكد تكفي لبقاء نوعها والمدافعة عنها عند الاقتضاء. ولكن ماذا ذلك بالنظر إلى محيط العلوم الحقيقية؟ أين مجد بغداد؟ أين فخر حلب؟ أين زينة الاسكندرية ورونق الاندلس وبهاء دمشق؟ أين المأمون؟ أين المستنصر؟ أين المتنبي؟ أين أبو الفداء؟ ولكن أما تذكر هذه العلوم الالفة القديمة، وترجع فتزور ديارنا وتخفف شقاء العرب، وتصلح بلادهم وأحوالهم؟ إننا إذا نظرنا إلى الجيل التاسع عشر ينفتح لنا باب للأمل. فلتبشر بنو سام لأن أولاد عمهم بني يافث قد ابتدأوا يرجعون لهم ما أخذوه منهم مطبوعاً وعلى ظهره اكتشافاتهم المتأخرة نظير فائدة لا رباء عن مدة أربعمائة سنة وإن يكن في أكثر الأوقات منغصاً ومعاقاً بما يظهره البعض من أولاد عمنا المذكورين من العتوّ والاستكبار على جنسنا الشرقي والاستهانة به. نحن سلّمناهم العلوم من يدنا اليسرى عن طريق واحد، وأما هم فآخذون في إرجاعها لنا بيدهم اليمنى عن طرق شتى. ويجب أن نضع المرسلين الأمركان، والرهبان والراهبات اللاتينية، وعلى الخصوص اليسوعية منهم والعازارية، في الرتبة الأولى من هذا القبيل لأن حسن قدوتهم وفضل مساعيهم في هذا الأمر بواسطة مدارسهم ومطابعهم ظاهران لا ينكرهما إلاّ من كان ناكر الجميل أو من أصحاب الغرض والتعصب. وقد فعل المخلد الذكر محمد علي باشا في هذا الجيل بكتب الافرنج ما فعله كرلوس الكبير بكتب العرب، فأمر بترجمة أطايبها إلى اللغة العربية، وسلمها مع كثير من الكتب العربية القديمة للمطبعة المعتبرة الموجودة في بولاق من الاقليم المصري، فخرج منها كتب شتى في اللغة والطب والطبيعيات والتاريخ وهلمَّ جراً. فزيَّن لغته العربية بكامل الفنون والصنائع من العربية والافرنجية، وعسى أن يحذو أنجاله وحفدته حذوه في هذا الأمر. وهكذا ترى العلوم والفنون الافرنجية المبنية على مبادىء حقيقية قادمة إلينا من كل فجّ عميق. وما مكث فيه الافرنج السنين العديدة، والمدد المديدة، يمكن العرب أن يكتسبوه في أقرب زمان مع غاية الاتقان والأحكام. فالعلوم إذاً قد أكملت دورتها بوصولها إلى العرب عن طريق الاسكندرية واسلامبول والهند وبيروت. وكما ان الافرنج لم يستخفوا بآداب العرب في أيام جهلهم لأجل مجرد كونها منسوبة إلى العرب، كذلك لا يليق بالعرب أن يستخفوا بعلوم الافرنج لأجل كونها إفرنجية، بل يليق بنا أن نترحب بالعلوم من دون نظر إلى من يعطينا إياها سواء كانت آتية من الصين أو الهند أو العجم أو أوروبا. وإدعاء البعض بأن العرب يوجد عندهم كل شيء يحتاج إليه من العلوم والفنون لا يوجد برهان أقوى منه على عمق جهلهم. وكما ان العرب لا يأنفون أن يكتسبوا الصنائع من الافرنج ويأخذون عنهم العادات من الحسنة والمستهجنة لا ينبغي أن يستنكفوا من أن يكتسبوا منهم العلوم التي هي واحدة عند الجميع.

إن الافرنج يشهدون للعرب بالذكاء وسرعة الفهم ويمدحون قدماءهم ويعترفون لهم بالعلوم والمعارف ولكن شتان بين علومنا التي كنا نعرفها وبين علومهم الآن كما هو مشاهد حسّاً. مثلاً، علم الحساب فإن ما نمكث في حسابه ساعتين وثلاثاً هم يحسبونه في دقيقة واحدة بحساب اخترعوه يسمى بالأنساب أي أوفاق الأعداد، ونحن لا نعرف إلاّ سبعة كواكب سيارة واليوم عندهم تنفيف على الأربعين. ولا نعرف إلاّ أربعة عناصر واليوم عندهم نحو خمسة وستين. والهواء الذي نحسبه بسيطاً عندهم مركب من بسيطين ويفرقونهما بالمشاهدة بآلات اخترعوها لذلك، وكذلك الماء عندهم مركب من عنصرين. وقد كشفوا كثيراً من المعادن التي لم تعرف سابقاً وما كشفوه في هذا القرن من نتائج الكيمياء والعلم الطبيعي والهندسة وجر الأثقال والمناظر لم يعهد سابقاً ولا أطلع أحد من قدماء اليونان وغيرهم على أقله، وذلك كسفينة البخار وطَرْق [تطريق] الحديد ونواعير المعامل والزبد الفحمي لوقد المصابيح والموصل البرقي الذي يوصل الخبر في دقيقة واحدة إلى مكان بعيد بينهم وبينه صحارى وبحور

وغير ذلك من المنافع التي لا تحصى والاكتشافات العجيبة التي بواسطتها انقلبت عناصر الأقدمين وانتقضت مبادىء علومهم الطبيعية. وذلك لأن العلوم كانت قديماً في سن الطفولية وأما الآن فقد أدركت. وستفعل الأجيال الآتية بكثير من فنون هذه الأيام ما فعله أبناء هذا الزمان بفنون المتقدمين، وذلك لأنهم سيستفيدون منها ويبتدأون من النقطة التي وصل إليها أسلافهم بعد جهاد طويل كما يكون غالباً في كل شيء ابتدائي.

ولا يخفى أن آداب الأقدمين كان بها شوائب كثيرة، وطريقة الانشاء عندهم كانت غير تامة، وقد اعتمدوا على التعقيد في كامل تصانيفهم، وداخلت الخرافات أكثر فنونهم، وبنوا أشياء كثيرة على مبادىء فلسفة اليونان التي جعلت أصحابها في عالم الوهم، وكانوا يدعون بأنهم يعرفون كل شيء بعلله ولهذا كثرت سفسطاتهم وتزايدت أغلاطهم وأوهامهم. وإذا قابلنا علومهم وآدابهم وطبّهم وطبيعياتهم وهلمَّ جراً بما يوجد عند أبناء هذا الزمان يظهر لنا الفرق ظهور الشمس في رابعة النهار. والذين لم يتيسر لهم الوقوف على علوم الافرنج وتصانيفهم يقرّون لهم بأنهم آلهة الصنائع زاعمين أن عقولهم في أيديهم، ولكن من وقف على الحقيقة لا يسعه الإنكار بأن الافرنج هم آلهة العلوم أيضاً وبأن عقولهم في رؤوسهم كعقولنا.

القسم الثالث

في آداب العرب في هذه الأيام

لو كلفت الوقوف أمام سيادتكم لأجل الكلام عن هذا الموضوع نحو ثلاثين سنة قبل الآن لكنت أخجل نظير ابن وطن من فتح هذا البحث الذي كشف مكنوناته يوجب عاراً وخزياً على أبناء بلادي عند الأجانب، لأنني حينئذٍ كنت ألتزم أن أجول في أسواق هذه المدينة (حتى لا أقول في كامل البلاد التي كانت في الأزمان السالفة مرضعة للآداب وسريراً للتمدن) وأفتش باجتهاد على من يقدر أن يقرأ مكتوباً أو كما يقال يفكّ الاسم. وأما الآن فإنه يوجد أمور كثيرة تقوي آمالنا في المستقبل. ومع اننا مدينون في أكثر هذه الأمور للغرباء يمكننا أن نرفع رؤوسنا بما وجد منها عندنا مع قطع النظر عن مصدرها لا على سبيل عدم الشكر وإنكار الجميل بل لأجل التقوية والتشجيع. وبما أن هذه الأمور هي طارئة ونادرة الوجود لا يجب أن نغفل عن تبيين الحق والأحوال الحقيقية لأن الحكم على الأغلب والأفراد لا تعتبر. وفي الكلام عن هذا البحث يلزمنا اجتناب التطويل والتفصيل والاكتفاء بالاختصار والاجمال بقدر الامكان اعتماداً على ما تقدم وعلى معلومات سيادتكم.

إنه يمكننا النظر إلى البحث الذي أمامنا من أوجه عديدة تقتصر على أربعة منها، وهي: **حالة العرب بالنظر إلى الآداب، وحالة الآداب نفسها عند العرب، وحالة الوسائط لاكتساب الآداب، وآمالنا في المستقبل.** فنقول:

أولاً: إن العرب في أيامنا هذه قنوعون جداً في أمر الآداب. فإنهم يكفتون بأقلها، ويحسبون أنفسهم انهم قد وصلوا إلى أعلى طبقات العلم، مع انهم لم يقرعوا بابه. ومَن تعلّم منهم كتاب الزبور، والقرآن، يقال إنه قد ختم علمه، وإذا تعلم شيئاً من أصول الصرف والنحو يقال فيه إنه قد صار علاّمة زمانه. وإذا نطق بالشعر فلا يبقى عندهم لقب يصفونه به. وما ذلك إلاّ لأن ظهور نور قليل في العاقل كافٍ لأن يغشي على عيني الجاهل، لأنهم إلى الآن لم يقفوا على شاطىء أوقيانوس العلوم ويروا عظمته واتساعه. ومع اننا نعتقد بأن عرب هذه الأيام هم من نسل العرب القدماء، لا نرى فيهم ما

رأيناه في أولئك المجاهدين من الثبات والجهاد في ميدان العلوم، ولا نقدر أن نسلم بأن النسل قد فسد، وذلك لأن جودة عقول العرب، وحسن استعدادها في هذه الأيام لتحصيل العلوم، يبرهنان النقيض. ولكن ذلك ناتج من أحوال كثيرة وأسباب متنوعة نود لو سمحت لنا الأوقات لبيانها لكي نخفف عمن هم من لحمنا ودمنا اللوم الواقع عليهم من الأجانب الذين لا نشك بأنهم كانوا وصلوا إلى حالة أردأ من حالتنا لو ألقاهم الدهر في ظروف كظروفنا. ولكن مهما كانت الأسباب فلا سبيل إلى إنكار كساد بضاعة العلم عند العرب، وعدم رواج سوقها بين جماهيرهم، وعلى الخصوص أكابرهم.

ثانياً : إن الآداب عند العرب في هذه الأيام هي في حالة انحطاط كلي. أما العلوم اللغوية فإننا قلّما نجد أحداً من أبناء العرب يمكن أن يشار إليه بالبنان بأنه يعرف لغته وقواعدها حق المعرفة. فإنهم في الأكثر يكتفون من علم اللغة بحفظ بعض كلمات غريبة ميتة يدرجونها في كتاباتهم وأشعارهم بقصد إظهار معرفتهم والتمويه على الجمهور، وما تلك إلّا حصى صغيرة يتلاعب بها الجيل في أيام طفوليته. ومن قال منهم: سلسة والزي وهزا ومنهي وفيهو (أي ثلثة والذي وهذا ومنه وفيه) وما أشبه من إفساد اللغة فهو ناح. وأما المعاني والبيان وما يتعلق بهما فمتروك حل مسائلها وفهم مؤلفاتها النفيسة التي لم تفقد من الهجر إلى همة ونشاط أجيال مستقبلة. وأما علم المنطق فيكفيه اعتباراً وحفظاً عند أكثرهم قولهم فيه: «من تمنطق فقد تزندق». وأما العلوم التعليمية كالحساب والهندسة ومتعلقاتها فهذه يكتفون منها بالجمع والطرح ومن زاد عليهما الضرب والقسمة وحفظ بعض مسائل بأجوبتها مما أوجده لهم الأقدمون يذيع اسمه في الآفاق: «إنه من فحول العلماء». ويستغنون بالمقوّمين عن المسّاحين وبالبنّائين عن المهندسين. وأما علم الفلك فلا يوجد له من محام ولا حافظ وكأنه علم لا فائدة به للعرب لأنهم يعلمون أن الشمس تغطس في البحر وان الكواكب فوق رؤوسهم من دون افتقار إلى درس ولا عناء. وأما علم الطب فهو صناعة قد فتحت أبوابها عفواً لمن أراد أن يدّعيها لنفسه وإن كان لا يعرف القراءة بشرط أن يكون في حوزته ريشة ماضيه لتقطيع أوصال العباد. وهي الصناعة الوحيدة التي يمكن الانسان أن يتعاطاها من دون أن يتعلمها من أستاذ. وألحق بالطب علم الكيمياء، فإنه قد تقهقر عند العرب إلى حالته التي كانت له قبل أن مدّوا إليه أيديهم كما سبق القول. وأما صناعة الإنشاء فهذه منحصرة في نقل بعض كتابات قد ورثناها من المرحومين. وأما الخطب فهذه ميدان الديني منها: المنابر، وميدان الدنيوي: القهاوي. ولا يدخل في هذا الميدان إلّا من كان خشن الصوت حسن الذاكرة يحفظ بعض حكايات من قصص السندباد البحري وبني هلال وما أشبه ذلك من الحكايات الموجودة في كتاب **ألف ليلة وليلة** وغيره، ويحكيها على من حضر في القهاوي تكملة للكيف على حقه، ولكي تكون دليلاً على أصل متروك. وأما علم النبات فهذا متروك لرعاة المواشي والفلاحين. وأما علم الزراعة الذي وصل إلى أعلى طبقاته عند أجدادنا فهو الآن متروك لرحمة النقل والتقليد. وأما علم التاريخ فهذا مفقود ليس من يعتني به. وأما علم الجغرافيا فيكتفي الواحد منهم بمعرفة اسم بلدته وطريق بيته ويخشى ان يصيبه دوار إذا تعلم ان الشمس ثابتة والأرض تدور. وأما الشعر الذي من شأنه ان يتقدم جنازة أو يبشر بولادتها فبابه مفتوح عفواً لمن أراد الدخول وكل من حافظ على القوافي وألبس معاني الأقدمين أخلاق ثياب فهو شاعر، ولكن إذا أبدع بأن يأتي بكلمات غير مفهومة وأظهر مهارة وبراعة في التضمين والاقتباس حتى لا أقول في السرقة من الأقدمين فهو خنذيذ. وهكذا القول في باقي العلوم. وما دام العرب يكتفون بالتقليد والنقل ولا يريدون أن يتعبوا أنفسهم بالفحص والتحقيق لا يؤمل تقدمهم في العلوم والفنون. لا تهج أيها الدم العربي، ولا تغتظ من الحق، عندما تسمع واحداً مشتركاً فيك يبين لك حقيقة حالك، لا على سبيل التقريع والطعن، بل لأجل إيقافك على الحقيقة عسى أنْ يكون ذلك

واسطة لانتباهك وتقويتك في طلب العلم والتجلّد في ميدانه. وسوف تسمع مني كلاماً لطيفاً يستر شيئاً مما تقدم، كما أن حالك الحاضرة تبطل حقك في الافتخار بما سبق ذكره من فضل أجدادك.

ثالثاً : إن الوسائط لاكتساب الآداب كثيرة نقتصر منها على ما يأتي، ومما سيرد بيانه تتضح حالة هذه الوسائط بين العرب.

فمن الوسائط التي قصدنا ذكرها: **المطابع** ولا يخفى ان عدد المطابع وقوتها قد زاد كثيراً في هذا الجيل إلّا أن كثيراً منها طائفي مشتغل في طبع كتب دينية. والبعض منها إلى الآن لم يعط الجمهور برهان وجوده. فإنه في نفس هذه البلدة توجد خمس أو ست مطابع يخرج منها كتب وأوراق متنوعة ولا ريب أن هذه المطابع لو اشتغلت حق الشغل واعتنت في طبع ما من شأنه أن يفيد الجمهور بوجه العموم آداباً وتمدناً لكانت في ظرف مدة قصيرة تغني أبناء العرب بالكتب والمكاتب. ولا ينبغي أنْ نغفل عن القوة العظيمة الموجودة فوق رؤوسنا التي استخدم لها المرسلون الأمركان البخار. ولا شك في انها قادرة على نشر المعارف والتمدن في هذه البلاد في برهة قصيرة. وقد خرج منها كتب نفيسة في العلوم الرياضية والتاريخية فضلاً عن الكتب الكثيرة المتعلقة بالمذهب. ولو أطلق لها العنان وجرت بكامل قوتها في ميدان الآداب والعلوم لأغنت هذه البلاد في التصانيف المفيدة. ولا عن **المطبعة السورية** التي خُصّصت بـ **حديقة الأخبار**. ومما لا يشوبه ريب أن الجرنالات من أكبر الوسائط لتمدن الجمهور وزيادة عدد القراء إذا استعملت على حقها. والأمل ان هذه الفتاة التي هي أول مطبعة عربية خصصت بالجرنالات تتقوى وان أتعاب مالكها ومديرها العزيز خليل أفندي الخوري تكلل بالنجاح فيخلد ذكره عند أبناء الوطن كفاتح لهذا الحصن الحصين الذي أغفل المتقدمون عن فوائده. وكأني به واقفاً على شاطىء البحر الكبير الفاصل بين العالم القديم والعالم الجديد يستشرف تارة على الجديد ويلحظ أخرى إلى القديم ولدى انتشار ديوانه الموسوم بالعصر الجديد الذي أفرغ فيه الشعر القديم في قالب جديد يتضح المعنى المقصود. وتوجد مطابع أخرى كثيرة عربية في قزحيا والشوير وحلب والقدس وبلاد المغرب، ولكن المطبعة التي تستحق الذكر وقد أغنت الجنس العربي بالكتب المتفننة هي **مطبعة بولاق**. ونستدل على حسن نظام هذه المطبعة وعظم فائدتها من الكتب الكثيرة التي خرجت منها من أصلية ومترجمة. وقد ابتدأ مترجمو ونظّار هذه المطبعة يتجبنون بقدر الإمكان استعمال ألفاظ أجنبية في ما يترجمونه من اللغات الافرنجية مع انهم في ابتداء الأمر عندما كانت المطبعة في سن الطفولية كانوا يكثرون من الألفاظ الغربية مع وجود ألفاظ في العربية تقابلها. ولا يخفى ان المطابع العربية في أوروبا وأميركا أكثر منها في هذه البلاد وأنه لولا عناية هذه المطابع لما بقي عين ولا أثر لكثير من تصانيف العرب النفيسة. وهكذا نرى كثيراً من كتبنا العربية راجعاً إلينا بعد غربته الطويلة مطبوعاً بأحرف جميلة. ويا ليتنا نقدر أن نقول: بالضبط التام والصحة الواجبة.

ومنها المكاتب. ومع انه يوجد مكاتب كثيرة خصوصية في هذه البلاد ترى بخل مقتنيها أو متوليها من الجهة الواحدة وعدم أمانة مستعيري الكتب من الجهة الأخرى يقفلان عليها أبواباً حديدية ويتركانها لرحمة العث ومأوى للغبار. ولكن ما الفائدة من تكثير الكتب إذا لم يكن من يقرأها. وهذا يقتادنا إلى ذكر واسطة أخرى من وسائط اكتساب الآداب وهي **المدارس**.

لا يخفى ان عدد المدارس قد زاد كثيراً في هذا الجيل. فإنه يوجد في هذه المدينة مدارس كثير لكل ملة ومذهب، منها لتعليم اللغات، ومنها لتعليم القراءة البسيطة. وهل هي في حالة مناسبة لنوال الغاية المقصودة منها؟ فإن من نظر إلى نظامها ومعلميها وأكثر كتبها وأماكنها لا يشكل عليه الجواب.

واستخفاف الأهالي بالمدارس البسيطة وتسليم أولادهم لمعلمين غير مقتدرين على تعليمهم كما يجب هو مما يوجب فساداً في آداب الجيل ومعارفه منذ طفوليته. وتوجد مدارس بسيطة في أكثر المدن والقرى وكثير منها بسعي الأجانب لأن أكثر أهالي بلادنا إلى الآن متغافلون عن اعتبار قيمة العلم فلا يشاءون ان يفتحوا له باباً في دفاتر مصاريفهم. وكم تكون قليلة عند الوالدين والأولاد قيمة العلم الذي يكتسب مجاناً من دون أن يكلف الوالدين شيئاً. وأما المدارس العالية فهي قليلة العدد تقتصر في الغالب على علوم تتعلق بالمذهب حتى انه لا يمكننا أن نقول بالصحة إنه توجد مدرسة كلية ينظر فيها إلى العلوم باعتبار ذاتها. ومن المدارس العالية الوطنية النصرانية **مدرسة عين ورقة** المشهورة التي يسوغ لنا أن نقول بحق إنها أم المدارس الوطنية في هذه البلاد وقد انشئت في أواخر الجيل الماضي. ومن أطلع على شدة غباوة الأزمان التي انشئت فيها وافتقار الأهالي قاطبة في تلك الأيام إلى العلوم يتبين له فضل المطران يوسف اسطفان منشئها، ويزيد اعتبار فضله عند من يقف على المقاومات التي حصلت له عندما رفع الراهبات من دير عين ورقة ووزعهن على الأديرة ووضع مكانهن فتياناً يتعلمون بنيّة الإفادة والتعليم. ولا ينبغي أن ننسى فضل مساعي سيادة المطران يوسف رزق رئيس المدرسة المذكورة حالاً فإنه قد زادها قوة بواسطة زيادته أوقافاً على أوقافها ورونقاً بواسطة الأبنية الجديدة والاصلاحات العديدة التي أحدثتها همّته ونشاطه فيها وقد امتد فضله إلى الواقف أمام سيادتكم إذ قد صرفت عشر سنين في المدرسة المذكورة أتعلم وأعلم محفوفاً بمزيد غيرته الخصوصية عليَّ ومشمولاً بأنظاره وعنايته.

وقد اقتدى بالمطران يوسف اسطفان غيره فأخذت عائلة بيت صفير دير الرومية وعائلة بيت آصاف دير مار عبدا هرهريا من الراهبات اللواتي من شأن طريقتهن أن يقتصر على ما به إفادة أنفسهن ووضعتا مكانهن أولاداً يتعلمون هناك ما من شأنه من أن يقوي أركان الطائفة المارونية ويهذّب شعبها. ولهذه الطائفة فضل الأسبقية في هذا الأمر. ولها غير المدارس الطائفية العمومية المذكورة مدارس أخرى عالية أبرشية توجد في أكثر الأبرشيات لتعليم أولادها. وكذلك الروم الكاثوليكيون قد أقاموا في هذا الجيل مدرستين عاليتين الواحدة في دير **المخلص** وهي مختصة بالرهبان المخلصية والأخرى في **عين تراز** لأجل تعليم العوام، أنشأتها غيرة البطرك مكسيموس المشهور. وهذه الأخيرة لم تبق إلاّ سنين قليلة. وأملنا ان هذه الطائفة التي هي مع قلة عددها بالنظر إلى باقي الطوائف طائفة معتبرة في غناها ووجاهتها وتمدنها تنتبه إلى هذا الأمر بقدر ما تقتضيه حالتها. وأما الروم الارثوذكسيون فقد انتبهوا في هذه السنين الأخيرة، وهم الآن باذلون الهمة في تكثير المدارس وتوسيع دائرتها خلافاً لما نعهده من سلفائهم. وممن يستحق الذكر منهم نظراً إلى عالي همته وشدة غيرته في هذا الأمر المرحوم نعمة الله طراد الذي بقي سنين كثيرة وكيلاً على مدارس هذه الطائفة. وتسليم الطائفة المذكورة إدارة مدارسها في هذه الأيام لعمدة من معتبري أبناء الطائفة في الغنى والوجاهة والمعرفة كالخواجة حبيب جرجس بسترس وأرفاقه الوكلاء يفتح لنا باباً للأمل بأن هذه الطائفة التي عدد أعضائها في هذه البلاد يساوي عدد باقي الطوائف النصرانية جميعاً ستكون في مقدمة جيش طلبة العلم ومدخلي التمدن بين أهالي بلادنا. ولا ينبغي أن نغفل عن مدرسة السريان الكاثوليكيين في دير **الشرفة** ومدارس الأرمن ومدرسة الرهبان العازارية في **عين طورة** ومدرسة الأمركان في **عبيه** ومدرسة الرهبان اليسوعية في **غزير** فإن فوائدهن لا تنكر. ولكن في جميع المدارس المذكورة محل متسع للإصلاح ولا بد ان الاصلاح سيدخل رويداً رويداً مع تقدم الجيل.

وأما الاسلام فمن مدارسهم الشهيرة المدرسة التي انشأها مأمون الجيل التاسع عشر محمد علي باشا في **بولاق** من الاقليم المصري ونرجو انها تبقى محفوفة بعطايا الخديوي سعيد باشا والي مصر حالاً ومشمولة بأنظاره. وقد خرج منها تلاميذ معتبرون وجهابذة مدققون اشتهر فضلهم بواسطة التآليف

والترجمات العديدة الدالة على جهادهم ودقّة عقولهم وزيادة تحقيقهم. ولهم مدارس أخرى لا يسعنا الوقت لذكرها غير أن الأكثرين منهم الآن يقتدون بإبن سينا في طريقة اكتساب الآداب كما علمت من روايته السابق ذكرها عن نفسه. وعسى أن يتحول كثير من المزارات والخلوات إلى مدارس لأن أحوال هذا الجيل تعلن ان القلم قد تقدم على السيف خلافاً لقول المتنبي:

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي ... المجد للسيف ليس المجد للقلم
فاكتب بنا أبداً بعد الكتاب به ... فإنما نحن للأسياف كالخدم

وبذلك حصل التقدم لأصحاب المعارف والعلوم على أصحاب الشجاعة والسيوف لأن دولاب العالم يدور على رأس القلم. وما أحسن ما قاله الامام علي في هذا المعنى:

ما الفضل إلاّ لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
فقم بعلم ولا تبغي به بدلا ... فالناس موتى وأهل العلم أحياء

فيا أبناء الوطن، يا ذرية أولئك الأفاضل، وحفدة معاشر السريان واليونان الممتطين سنام الجيل التاسع عشر. جيل المعرفة والنور، جيل الاختراعات والاكتشافات، جيل الآداب والمعارف، جيل الصنائع والفنون: هبّوا. استيقظوا. انتبهوا. استيقظوا. شمّروا عن ساعد العزم. ها الآداب واقفة من كل جهة على أبوابكم تقرع طالبة الدخول إلى جبالكم الشامخة البهية وأوديتكم وسهولكم وصحاريكم التي زينتها الطبيعة بحلاها الفاخرة. فانبذوا عنكم تعصباتكم وتحزّباتكم وأغراضكم النفسانية وقدموا لها يداً واحدة لمصافحتها، وافتحوا الأبواب لهذا الصديق القديم الآتي إليكم بعد غربة مستطيلة، وترحبوا به واقبلوه بكل فرح وحبور فيملأ بلادكم راحة ورفاهية ويكسوها رونقاً وفخراً.

ولا ريب أن التقدم المتصل الذي حصل في هذه البلاد في السنين القليلة المتأخرة مما يقوي عزائم كل من له رغبة وغيرة على إنهاض الجنس العربي من حالته الساقطة. وإن أتعاب الذين صرفوا السنين الكثيرة في إدخال الآداب والتمدن بين العرب من أبناء الوطن والأجانب ستكلل بالنجاح. وسامي همة حضرة الذات الشاهانية حضرة سلطاننا الأعظم السلطان عبدالمجيد خان ذي النية الخيرية نحو راحة ورفاهية وأمنية ونجاح وتقدم كامل أصناف تبعته وإرادته الصالحة نحو إعطاء الحرية وانشاء المدارس وتوسيع دائرتها في ممالكه المحروسة مما يجب أن يحرّك عواطف كامل رعاياه إلى محبته وإلى رفع الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يطيل بقاءه ويوطد أركان دولته. ولا يخفى ان ذلك مع امتداد المتجربين العرب واختلاطهم بشعوب متمدنة وازدياد عدد المطابع والمدارس وانتظام حالة المجالس والمحافل وتقدم رجال الدولة في المعارف وفتح باب ميدان الإنشاء والخطب والمحاورات الأدبية والدينية والسياسية واطلاق زمام العقل وعنان الإرادة والانتباه إلى تعليم النساء، وعلى الخصوص في هذه المدينة التي كانت في الأزمان السالفة مرضعة للفقه ويؤمل أنها ستكون في ما يأتي مرضعة للآداب. كل ذلك يقوي عزائمنا وأملنا بأن العلوم ستمتد بين أبناء العرب وتملأ ديارهم وترجع إلى رونقها القديم وبأن هلال الآداب الذي ولد في أواسط الجيل التاسع عشر سيصير بدراً. انتهى.

قدم ملخص هذه الخطبة ارتجالاً بحضور عمدة الخطب وأمام محفل حافل من افرنج وأبناء عرب في بيروت، وذلك في اليوم الخامس عشر من شهر شباط سنة ١٨٥٩.

[**خطاب في آداب العرب**، بيروت، المطبعة الاميركانيّة، ١٨٥٩. ٤٠ ص].